

# الباب الأول

## الرجل

# الفصل الأول

## حياته

اتفق أكثر من كتب عن الرجل الذى أسعى وراءه، على كنيته واسمه. فهو عندهم أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب. ولم يخرج على هذا الاتفاق غير من كناه ابن النديم<sup>(١)</sup> "أبا سعيد" وروى عنه أن كنية يونس أبو محمد. ولم يتابعه أحد فى هذه الكنية. وقد أخفى هذا الاتفاق وراءه اختلافاً فيمن يسمي "حبيب"، لأنه من الأسماء المشتركة التى تطلق على الرجال والنساء.

وصور ابن خلكان<sup>(٢)</sup> هذا الاختلاف فقال: "حبيب اسم أمه - ولهذا<sup>(٣)</sup> لا يصرفونه - فإنه لا يعرف له أب. ويقال إنه ولد ملاءنة<sup>(٤)</sup>. ويقال إنه اسم أبيه؛ فينصرف . والله أعلم . وكذلك محمد بن حبيب النسابة أيضاً" . وإلى الرأى الأول

(١) الفهرست ٤٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٧١٤ / ٢ .

(٣) يريد للعلمية والتأنيث .

(٤) الملاءنة بين الزوجين: أن يقذف الرجل امرأته أو يرميها برجل أنه زنى بها، فالامام يلاعن بينهما. ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول: "أشهد بالله أنها زنت بفلان، وأنى لصادق فيما أرميها به". فإذا قال ذلك أربع مرات، قال فى الخامسة: "وعلى لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما أرميها به". ثم تقام المرأة فتقول أيضاً أربع مرات: "أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا". ثم تقول فى الخامسة: "وعلى غضب الله إن كان من الصادقين". فإذا فرغت من ذلك بانث منه، ولم تحل له أبداً. وإن كانت حاملاً لوجاءت بولد، فهو ولدها ولا يلحق بالزوج لأن السنة نفتته عنه. سمي ذلك كله لعنا وملاءنة لقبول الزوج: "على لعنة الله إن كنت من الكاذبين" وقول المرأة: "على غضب الله إن كان من الصادقين".

ذهب الفيروز آبادى<sup>(١)</sup>، حين قال: "حبيب أمه، ولم أقف على اسم أبيه".  
ولكن أبا أحمد العسكري<sup>(٢)</sup> روى خبراً، إن صح أبطل هذه الأقوال، قال:  
"أنشدنا الهزاني قال: أنشدنا الرياشي قال: حدثنا ابن أبي رجاء قال: حدثنا أبو  
ثوبان: قال يونس: "أرسلني أبي إلى رؤبة أسأله: كيف ينشد هذا البيت:

أبى لبيني لستم بيد      إلا يد ليست لها عضد

أم يدا؟ فقال: كيف شئت". فالخبر يصرح أن "أباه" هو الذى أرسله إلى رؤبة  
مستفهما.

وبالرغم من ذلك فإنى أشك فى هذا الخبر، أو فى صورته هذه. فلم أجد  
أحداً ممن أرخ للغويين والنحويين ترجم لهذا "الأب"، ولم أجد أحداً روى عنه أو  
أورد أخباراً أخرى عن يونس عنه. وأظن أن تحريفاً وقع فى نص الخبر، وأن صحته  
"أرسلني أبو عمرو إلى رؤبة أسأله"، فسقط "عمرو" فغير أحد النساخ "أبو" إلى  
"أبى".

وتكرر الظاهرة نفسها فى أمر آخر. فقد أجمع المؤرخون على أن يونس  
مولى، ثم اختلفوا فيما ارتبط به بالولاء. وكان ابن خلكان<sup>(٣)</sup> أيضاً الذى أحسن  
تصوير الاختلاف فى قوله: "قال أبو عبد الله المرزبانى فى كتابه "المقتبس فى أخبار  
النحويين": هو مولى ضبة، وقيل: هو مولى بنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة،  
وقيل: مولى بلال بن هرمى، من بنى ضبيعة بن بجالة".

(١) تحفة الأبيہ ١١٠.

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٣٦٣.

(٣) وفيات الأعيان ٢: ٤١٦.

واقصر ياقوت<sup>(١)</sup> على ذكر القبيلتين، فقال: "الضبي"، وقيل: اللبشي، بالولاء". ورجح المبرد ولاءه إلى ثانيتهما، روى القفطي<sup>(٢)</sup>: "قال المبرد محمد بن يزيد: يونس بن حبيب أبو عبد الرحمن، أراه مولى بني ليث". ومال أبو الحسن الخزاز إلى ذلك استبطا، قال<sup>(٣)</sup>: "أراه مولى لبني ليث.. لا أحقه، ولكنه كان يكون مع هؤلاء، فلا أدري هو مولى أم لا".

ولكنني أعتقد أن الحكم في هذا الأمر تلميذه أبو عبيدة معمر بن المثنى<sup>(٤)</sup>، الذي أعلن ولاءه لبلال، من بني ضبيعة، وهو الذي ذكره جرير في قوله:

يا ضب، على أن تصيب مواسمي كوزا على حنق ورهط بلال

ونستبين من قصيدة جرير أن بلالا من بني ضبة، فولاء يونس له ولاء لبني ضبة، فلا خلاف بين نسبه بالولاء إلى الرجل أو إلى قبيلته.

ويتبادر إلى الذهن من هذه الأقوال أن يونس فارسي الأصل. ولكن بروكلمان<sup>(٥)</sup> له رأى آخر ليس بعيد، قال: "زعم مصنف "مفاخر العجم" أنه أعجمي.. ولكنه يجوز أن يكون أيضا من النبط الآراميين".

ولا خلاف بين المؤرخين أنه ولد في جبل، وهي بلدة صغيرة بالعراق على دجلة، ذكر ابن خلكان<sup>(٦)</sup> أنها بين واسط وبغداد، وذكر

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ .

(٢) إنباه الرواة - المجلد الثاني ٣٦٤ .

(٣) الفهرست ٤٢ .

(٤) شرح النقاظ ١ : ٣٣٢ .

(٥) تاريخ الأدب العربي ١٣٠ : ٢ وانظر الفهرست ٤٢ .

(٦) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ .

ياقوت<sup>(١)</sup> أنها بين واسط والنعمانية. ولا تناقض بين القولين، غير أن قول ياقوت أدق. فأثار البلدة تقوم الآن في لواء الكوت، بين مديني الكوت والحسينية، مقابل أم البني، عند خط طول ٤٢ - ٤٥ ° شرقا وخط عرض ٣٣ - ٣٢ ° شمالا.

وكان يونس لا يجب أن ينسب إلى بلدته، أو يذكر بها. روى الأصمعي<sup>(٢)</sup> أنه لقيه رجل من ولد أبي عمير، فأراد أن يسخر منه، فقال: "يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في "جبل" : أينصرف؟" فسبه. والتفت العميري فلم ير أحدا يشهده عليه. فتركه حتى إذا كان من الغد، وجلس يونس للناس، أتاه العميري وأعاد السؤال: "يا أبا عبد الرحمن، ما تقول في "جبل" : أينصرف؟" فرد عليه يونس: "الجواب ما قلت لك أمس". ولعل سبب هذه الكراهية أن جبل تذكره بمولده غير الكريم، أو بأصله غير العربي، وخاصة إن كان من الأنباط، الذين لم يحترمهم العرب.

## مولده

اختلف العلماء في السنة التي ولد يونس فيها اختلافا حكاها ابن خلكان<sup>(٣)</sup> في قوله: "مولده سنة تسعين .. وقيل : مولده سنة ثمانين". واقتصر السيوطي<sup>(٤)</sup> على التاريخ الأول، وياقوت<sup>(٥)</sup> على الثاني. ونقل ابن الجزري<sup>(٦)</sup> أن وفاته كانت في سنة ١٨٥ هـ عن ٨٨ سنة، ويعنى هذا أنه ولد في سنة سبع وتسعين هجرية أو ما قاربها.

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣ .

(٢) القفطي ٢ : ٣٦٤ . ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٦ .

(٤) بغية الرعاة ٣٦٥ .

(٥) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧ .

(٦) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .

ولكننا نعرف أنه أخذ عن حماد بن سلمة، وأن محمد بن سلام الجمحي سأله:  
"أيما أسن: أنت أو حماد؟" فقال: هو أسن منى، ومنه تعلمت العربية"<sup>(١)</sup>. ولم أجد من  
ذكر مولد حماد، ولكنهم أعلنوا أنه مات في سنة ١٦٥ أو ١٦٧، أو ١٦٩هـ بعد  
أن كبر وأهتز، كما قال بعضهم؛ وقارب الثمانين، في قول بعضهم الآخر. وإذن  
فمولد حماد بين سنتي ٨٥، و ٨٩هـ أو قريبا منهما. ويقطع هذا باستحالة أن يكون  
مولد يونس في سنة ٨٥هـ.

وذكر ابن خلكان<sup>(٢)</sup> أنه "كان يقول: أذكر موت الحجاج .. وقيل: إنه رأى  
الحجاج". ولما كان الحجاج بن يوسف الثقفي - المعنى بهذا الكلام - قد مات في  
سنة ٩٥، كان القول بأن يونس ولد في سنة ٩٧ غير صحيح.

ولا يبقى عندنا غير سنة ٩٥، وهي التي تصلح لأن تكون مولدا ليونس على  
كل الأقوال. ويوجهها أيضا سؤال ابن سلام الذي يدل على أن الفرق بين عمري  
حماد ويونس كان من الضالة بحيث يشبهه على الناس ويحتاج إلى السؤال عنه.

## وفاته

طال العمر بيونس حتى ثقلت حركته. قيل إنه دخل المسجد يوما وهو يتهدى  
بين اثنين من الكبر. فقال له رجل كان يتهم مودته: "بلغت ما أرى، يا أبا عبد  
الرحمن!" فقال له: "هو الذي ترى فلا بلغته"<sup>(٣)</sup>. وكثيرا ما كان ينشد قول الشاعر:

---

(١) نزهة الألباء ٢٦ . السيرافي ٣٤ .

(٢) الوفيات ٢ : ٤١٦ .

(٣) أبو الطيب ٢١ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطي ٢ : ٣٦٣ . الحيوان للجاحظ ٥ : ٥٩١ ابن الجزري ٢

: ٤٠٦ . نزهة الألباء ٣٤ . عيون الأخبار ٢ : ٣٢٠ . المعمرون ٧٢ . أمالي المرتضى ١ : ٢٥٧ .

حنتنى حانيات الدهر حتى كأنى خاتل يدنو لصيد  
قريب الخطو يحسب من رآنى -ولست مقيدا- أنى بقيد  
اتفق المؤرخون على هذا، ثم اختلفوا فى قدر عمره، والسنة التى توفى فيها،  
واقصر أكثرهم على إيراد الأقوال المتنازعة دون ترجيح.

وأقل ما قالوا من أعوام عاشها يونس ٨٨ سنة، وأعتقد أن الذين أتوا بهذا  
الرقم اعتمدوا على قول لاسحاق بن إبراهيم الموصلى<sup>(١)</sup>؛ وعلى هذا القول نفسه  
اعتمد السيوطى حين قال إنه قارب تسعين سنة<sup>(٢)</sup>. وحكى ابن خلكان فيما حكى  
عن المرزبانى أنه عاش ٩٨ عاما<sup>(٣)</sup>. وكان من الروايات التى أوردها ابن الجزرى  
وابن قاضى شعبة أنه قارب المئة<sup>(٤)</sup>، ولعلهما اعتمدا فى ذلك على قول المرزبانى  
السابق. وصرح اللغوى المعروف ثعلب<sup>(٥)</sup> أنه جاوز المئة. وكان أطول عمر وهبوه  
للرجل مئة سنة واثنتين<sup>(٦)</sup>.

وأغرب الروايات فى وفاته ما نقله بروكلمان<sup>(٧)</sup> عن يقول إن ذلك كان فى  
سنة ١٥٢هـ. فالمرحوف أن سيويه مات قبل جماعة كان قد أخذ عنهم كيونس  
وغيره<sup>(٨)</sup>، وأن سيويه مات فى سنة ١٦١ أو بعدها.

(١) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . القفطى ٧ : ٣٦٦ . ابن قاضى شعبة ٢٥٢ . الفهرست ٤٢ .

(٢) البغية ٧ : ٣٦٥ .

(٣) الوليات ٢ : ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٤) الغاية ٢ : ٤٠٦ . الطبقات ٢٥٢ .

(٥) نزهة الألباء ٣٤ . القفطى ٢ : ٣٦٥ ، ٣٦٦ ابن الجزرى ٢ : ٤٠٦ . ابن قاضى شعبة ٣٥٢ .

الفهرست ٤٢ .

(٦) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ ياقوت ٢٠ : ٦٧ ابن العماد ١ : ٣٠١ .

(٧) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠ .

(٨) السيرافى ٣٧ .

ثم تجمع سائر الأقوال على أن وفاة يونس كانت في العقد الثامن بعد المئة. وقد أجهل رجلان القول ولم يحددها، قال ابن العماد<sup>(١)</sup> في وفيات سنة ١٨٢ هـ: "وفيها وقيل قبلها أو بعدها توفي يونس". وقال ابن الجزرى<sup>(٢)</sup>: "توفى بعد اثنتين وثمانين ومئة".

أما بقية الرجال فقد حددوا سنوات تقع بين ١٨٢ و ١٨٥. فانفرد ابن خلكان وابن الجزرى<sup>(٣)</sup> بإيراد قول يصرح أن الوفاة وقعت سنة ١٨٥ هـ، وأولهما بإيراد قول عبد الباقي بن قانع الذى أعلن أن ذلك كان سنة ١٨٤ هـ. وتتكاثر الأقوال حول السنتين الباقيتين، فاتفق الزبيدى والجاحظ وياقوت وأبو الطيب والقفطى وابن قاضى شهبة والسيوطى على سنة ١٨٢<sup>(٤)</sup>، والسيرافى وثلعب وابن الأنبارى والقفطى على سنة ١٨٣ هـ<sup>(٥)</sup>.

## أخلاقه

إذا أردنا أن نتعرف مذهب الرجل ودينه وجدنا أمامنا بعض الأقوال المتناثرة التى تلقى عليه بعض الأضواء.

قال إبراهيم الحربى<sup>(٦)</sup> إن أهل العربية كلهم أصحاب أهواء، إلا أربعة فإنهم

(١) شذرات الذهب ١ : ٣٠١.

(٢) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦.

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ . غاية النهاية ٢ : ٤٠٦.

(٤) مراتب النحويين ٢١ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيوطى ٢ : ٣٢٥ . القفطى ٣ : ٣٦٥ ابن قاضى

شهبة ٢٥٢ . بروكلمان ٢ : ١٣٠ . الحيوان ٥ : ٥٩١ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧ .

(٥) السيرافى ٣٧ ابن الأنبارى ٣٤ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطى ٢ : ٣٦٦ الفهرست ٤٢ .

(٦) ابن الأنبارى ١٧ ، ٨٤ . ابن حجر تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٤ .

كانوا أصحاب سنة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصرى، والأصمعى.

ولما كان الثلاثة الآخرون يتمتعون عند الدارسين بأقصى درجات الاحترام، ويشغلون أسمى مكانة، دل هذا على ما كان يتمتع به يونس من احترام وتبجيل.

ويؤيدنا فى هذا قولان آخران ينسبان إلى اثنين من أشهر العلماء والكتاب. قال أبو حاتم السجستاني<sup>(١)</sup> فإذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها، أو حكيت عن العرب شيئاً، فإنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبى زيد والأصمعى وأبى عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم". وبعنا هذا القول مكانة يونس عند أتباع مدرسة البصرة فى اللغة خاصة.

أما القول الثانى فبعنا مكانة يونس عند الأدباء عامة، وفى مروياته. قال الجاحظ<sup>(٢)</sup> ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة (بن دعامة السدوسى)، وأبى عمرو بن العلاء، وابن جعدبة (يزيد بن عياض الليثى)، ويونس بن حبيب، وأبى عبيدة، ومسلمة بن محارب.. فإن هؤلاء وأشباههم مأمونون، وأصحاب توقُّ وخوف من الزوائد، وصون لما فى أيديهم، وإشفاق على عدالتهم".

وكان يونس حريصاً ألا يخوض فى المسائل التى فرقت بين المسلمين. قيل إنه جرى ذكر القدر فى أحد مجالسه، فستل عن رأيه فيه، فقال: "لا فكر لى فيه"<sup>(٣)</sup>.

(١) أبو الطيب ٩٠ المزهر ٢ : ٤١٠.

(٢) البغال (رسائل الجاحظ) ٢ : ٢٦٦ - ٨.

(٣) القفطى ٢ : ٣٦٥.

ولكن حرصه هذا لم يمنعه من إبداء رأيه في بعض المسائل، التي كان الاختلاف فيها قليل الخطر. قال محمد بن سلام<sup>(١)</sup>: "سمعني يونس يوماً أراد التميمية في خالد (بن الوليد، في قتله مالك بن نويرة في حروب الردة) وأعدره. فقال: "يا أبا عبد الله، أما سمعت بساقى أم تميم؟" - يعني زوجة مالك - "أو صارت أم تميم إلى خالد بنكاح أو سباء؟ وما عابه عليه عمر بن الخطاب قال: قتلت امرءاً مسلماً ووثبت على امرأته بعقرباء يوم بنى حنيفة".

بل بلغ من جرأته أن عاب بعض الأنبياء في تصرفات لهم. ذكر عمر بن شبة عن خلاد بن يزيد عن يونس قال<sup>(٢)</sup>: "ثلاثة والله أشتهي أن أمكن من مناظرتهم يوم القيامة: آدم عليه السلام، فأقول له: قد مكنتك الله من الجنة وحرمت عليك شجرة، فقصدت لها، حتى ألقينا في هذا المكروه؛ ويوسف عليه السلام أقول له: كنت بمصر وأبوك عليه السلام بكنعان، بينك وبينه عشر مراحل، يبكي عليك حتى ابيضت عيناه: لم لم ترسل إليه أنى في عافية وترجحه مما كان فيه من الحزن؟؛ وطلحة والزبير أقول لهما: على بن أبى طالب عليه السلام بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق، لأى شئ أحدث؟".

وكان يونس رضى الخلق، يثنى على أساتذته وزملائه وتلاميذه، ويعترف لكل منهم بفضلهم، ويبادر إلى تصديق أقوالهم، ويورد من الأقيسة ما يدعمها.

يتجلى لنا ذلك فى موقفه من أستاذه عيسى بن عمر. روى ابن السيد البطليوسى<sup>(٣)</sup>: "قال سيويه: وزعم عيسى بن عمر أن ناساً من العرب يقولون: إذن

(١) طبقات فحول الشعراء ١٧٣.

(٢) السرافى ٢٩. ابن قاض شعبة ٢٥٢. نزهة الألباء ٣٣.

(٣) الخلل ٤١ ظ.

أفعلُ ذلك، في الجواب، بالرفع. قال سيبويه: فأخبرت بذلك يونس فقال: "لا يعد ذا ، ولم يكن ليروى إلا ما سمع، جعلوها بمنزلة هل وبل. أراد أنهم لم يُعملوها".

وأشاد بذكاء زميله، ومنافسه على رئاسة علم النحو في البصرة، أحسن الاشارة. قال أبان بن رزين البصرى<sup>(١)</sup> : زعم يونس النحوى أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة.

وعندما برز واحد من تلاميذه في العلم الذى منحه حياته لم يتمتع عن إيفائه حقه من التقريظ والتشجيع، وأشاع ذلك بين بقية تلاميذه. قال القراء<sup>(٢)</sup>: "دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه، فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة".

واتجه تلميذ آخر له اتجاها يخالف اتجاه يونس بعض الشيء، فلقى فيه الشيء الكثير من النجاح والشهرة. فكان الأستاذ من المغتربين بما لقى التلميذ، والمعرفين له باتجاهه وإجادته فيه، حتى لو كشف ذلك عن تقصير منه فيه. روى ابن عبد ربه عن مروان بن أبى حفصة قال<sup>(٣)</sup>: "لما مدحت المهدي بشعري الذى أوله:

طرتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالها

أردت أن أعرضه على بصراء البصرة. فدخلت المسجد الجامع، فصفحت الحلق فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس النحوى. فجلست إليه فقلت له: إني مدحت المهدي بشعر، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضه على بصرائكم، وإني تصفحت الحلق فلم أر حلقة أحفل من حلقتك، فإن رأيت أن تسمعه منى فافعل. فقال: يابن

(١) ابن المعتز : طبقاته ٩٧ .

(٢) السيوطى: الزهر ١ : ٢٠٢ .

(٣) العقد الفريد ٥ : ٣٠٦ ولكننا يجب أن نتوقف فى هذا الخبر، لأنه روى أيضا بصورة تخالف الاستدلال به هنا.

أخى؛ إن ها هنا خلفا (الأحمر) ولا يمكن أحدنا أن يسمع شعرا حتى يحضر، فإذا حضر فأسمعه..".

بل كان يقر بالاجادة لنظرائه من العلماء بالعربية، ولو كانوا من غير البصرة، إذا ما أبدوا الرأى المعجب ولو خالف ما عنده. قال محمد بن سلام<sup>(١)</sup>: "قدم الكسائى البصرة مع الرشيد. فجلس إلى يونس فى حلقتة. فألقى عليه بعض من حضر المجلس بيتا للفرزدق:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة      حصين عبيطات السدائف، والخمر

فأنشده هكذا. فقبل للكسائى: "على أى شىء رفعت الخمر؟" فقال: "أضمرت فعلا كأنه قال: وحلت له الخمر". فقال يونس: "ما أحسن والله ما وجهته، غير أنى سمعت الفرزدق ينشد:

غداة أحلت لابن أصرم طعنة      حصين عبيطات السدائف، والخمر

جعل الفاعل مفعولا، كما قال الخطيئةأ

فلما غشيت الهون والعر ممسك      على رغمة، ما أمسك الحبل حافره

والقصيدة على الرفع، جعل الفاعل مفعولا. فقال الكسائى: "هذا على هذا وجه".

ولكن بعض الشبان فى حلقة يونس لم يعجب بمسلكه<sup>(٢)</sup> وأراد أن يمحرج الرجل ويتقصه، فأخذ يوجه إليه السؤال بعد السؤال. ولكن يونس لم يرض عن هذا الأمر، وقال غاضبا: "تؤذون جليسا ومؤدب أمير المؤمنين".

(١) القفطى: ٢ : ٣٦٧. شرح إعراب أبيات الجمل ١٠٢ ظ . وانظر البغية ٢ : ١٦٣ .

(٢) السرافى ٢٧ . مجالس العلماء ٢٤٤ .

ويذكرنا هذا بموقف مشابه كان ليونس نفسه في شبابه. روى أبو عبيدة عن يونس قال<sup>(١)</sup>: "كنت عند أبي عمرو فجاءه شبيل بن عزرة الضبعي. فقام إليه وألقى له لبد بقلته، فجلس عليه ثم أقبل عليه يحدثه. فقال شبيل: "يا أبا عمرو، سألت رؤبتكم عن اشتقاق اسمه فما عرفه!" - يعني رؤبة. فلم أملك نفسي عند ذكره فرجعت إليه ثم قلت له: "لعلك تظن أن معد بن عدنان أفصح منه ومن أبيه! أفتعرف أنت ما الروبة، والروبة، والروبة، والروبة، والروبة؟ فأنا غلام رؤبة". فلم يجر جوابا وقام مغضبا. فأقبل عليّ أبو عمرو وقال: هذا رجل شريف يقصد مجالسنا ويقضى حقوقنا وقد أسأت فيما فعلت لما واجهته به! "فقلت له: "لم أملك نفسي عند ذكر رؤبة" فقال أبو عمرو: "أو سلطت على تقويم الناس؟".

فيونس قد أفاد من أبي عمرو أدبا تحلى به في شيخوخته. ولكن هذا الأدب لم يمنعه من معارضة الكسائي، وتوجيهه إلى المسلك العلمي الحق في بعض الأحيان. فقد سأل الشراداني - من تلاميذ يونس - الكسائي<sup>(٢)</sup>: "كيف تصغر حسينا؟" فقال: "حسينين" فقال مستكرا: "أتصغر مصغرا؟ هذا ما لا نهاية له. فوثب رجل كان مع الكسائي على الشراداني وقال: "أتقول هذا لمؤدب أمير المؤمنين؟" فكان رد يونس الحاسم: "مغالبة العلم بالحجة لا بالسلطة".

ولعل هذا الأدب الذي تحلى به يونس هو الذي جعله يعتمد على الكناية حين

(١) فسر يونس لتلاميذه الرويات فقال: الروبة: خمرة اللبن. والروبة قطعة من الليل. ويقال: لا يقوم بروبة أهله: أي بما أسندوا إليه من أمورهم والروبة: جام ماء الفحل. والروبة - مهموزا: القطعة التي يشعب بها الإناء. وانظر القفطي ٢: ٣٦٤. الزهر ١: ٣٧٠. المراتب ٢٢. مجالس العلماء ٣٠٣. سمط اللآلئ ١٩٤.

(٢) العسكري: شرح ١٢٦.

يريد أن يذكر بعض الصفات الكريهة في بعض من يعرف. ولذلك قال عن خلف الأهر حين اضطر إلى الحديث عنه<sup>(١)</sup>: "يضرب ما بين الكركي إلى العندليب".

ولم أعثر على ما يعيبه غير الخبر الذي يذكر أنه السبب في مقتل بشار بن برد. روى أبو الفرج في أحد أخباره<sup>(٢)</sup> أن بشارا هجا الخليفة المهدي، والوزير يعقوب بن داود، فأفحش في الهجاء. ثم أنشد هجاءه في حلقة يونس، فسمى به إلى الوزير. فغضب ونقل الهجاء إلى الخليفة فأمر بقتله فقتل.

ولكن الخبر - بصورته السابقة - غير صحيح. فالحق<sup>(٣)</sup> أن غزل الرجل الماجن، واشتهاره بالزندقة، وورثاه أصدقاءه من الزنادقة الذين قتلهم المهدي، وأخيرا هجاءه للخليفة، كل ذلك أغضب الخليفة عليه. وعندما قدم المهدي إلى البصرة في سنة ١٦٨ سأل عنه، فشهد أمامه شهود موثقون بأنه زنديق، فأمر بضربه حتى الموت. وكان يونس أحد هؤلاء الشهود، قال عند سؤاله<sup>(٤)</sup>: "إن بشارا زنديق وقامت عليه البينة عندي بذلك".

وقد فرح يونس بمقتل بشار. قال سالم بن علي<sup>(٥)</sup>: "كنا عند يونس فنعى بشارا إلينا ناع، فأنكر يونس ذلك وقال: لم يموت. فقال الرجل: أنا رأيت قبره. فقال: أنت رأيت؟ قال: نعم وإلا فعلى وعلى؛ وحلف له حتى رضى. فقال يونس: للبيدين وللقم".

---

(١) الجاحظ: الحيوان ٥ : ١٤٩ ، ٦ : ٤٠٩ .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٤٣ .

(٣) شوقي صيف: تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول ٢٠٦ .

(٤) الأغاني ٣ : ٢٤٦ .

(٥) الأغاني ٣ : ٢٤٧ .

ولكن هذا الفرح لا يعيب الرجل، لأنه كان أحد أبناء البصرة، التي احتفلت بهذا الموت احتفالا خاصا. قال عمر بن شبة<sup>(١)</sup>: أمر المهدي عبد الجبار صاحب الزنادقة ف ضرب بشارا، فما بقى بالبصرة شريف إلا بعث إليه بالفرش والكسوة والهدايا. وقال أبو الفرج<sup>(٢)</sup>: لما مات بشار ونعى إلى أهل البصرة تباشر عامتهم وهنا بعضهم بعضا، وحمدوا الله، وتصدقوا، لما كانوا منوا به من لسانه.

وإذن فيونس برىء من تهمة الوشاية ببشار، ووصمة الثماتة بمقتله إذ لم ينفرد بذلك دون بقية كبار رجال البصرة.

وآخر ما وجدت من طباع يونس وأخلاقه أنه كان يشرب المطبوخ<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الأغاني ٣ : ٢٤٧ .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٤٨ .

(٣) الفقهى ٢ : ٣٦٥ .

## الفصل الثاني

### طالب العلم

كان يونس بن حبيب يرفع قدر العلم حتى قال<sup>(١)</sup>: "علمك من روحك ومالك من بدنك".

وكان يرى أن علم العربية خاصة أمر ضروري لكل رجل، لا بد أن يحسنه علما وعملا، أو نظرا وتطبيقا، حتى يتحلى بالفصاحة والبيان. قال<sup>(٢)</sup>: "ليس لعيى مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو بلغ يافوخه أعنان السماء".

لا عجب إذن أن يشتغل رجل هذه آراؤه بالعلم عامة، والعربية خاصة، بل أن يقبل عليه حتى ينسى كل شئ غيره. فكان أول ما ينسى طعامه وشرابه، قال<sup>(٣)</sup>: "ما أكلت في شتاء شيئا قط إلا وقد برد، ولا أكلت في صيف شيئا إلا وقد سخن".

وكان مما نسى أو تشاغل عنه أسرته حتى اعتقد بعض الناس أنه لا أسرة له. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي<sup>(٤)</sup>: "عاش يونس ثمانية وثمانين سنة، لم يتزوج ولم يتسر، ولم يكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال". ولكن هذا القول غير صحيح، لأننا نعرف واحدا من أبناء يونس كان يسمى حرميا، روى القراءة عنه.

---

(١) عيون الأخبار ٢: ١٢١.

(٢) عيون الأخبار ٢: ١٧٥. البيان والتبيين ١: ٧٧. ربيع الأبرار ٤: ٩٩.

(٣) الجاحظ: الحيوان ٣: ٤٦٩.

(٤) القفطي ٢: ٣٦٦. ابن خلكان ٢: ٤١٦. البغية ٢: ٣٦٥. الفهرست ٤٢.

## شيوخه

ولا يذكر المؤرخون ليونس أين طلب العلم أولاً، ولا متى، ولا فى أى سن. فلا ندرى هل كان ذلك فى بلدته الأولى أو كان فى البصرة، بل لا ندرى متى انتقل إلى البصرة. ولكن الذى نقطع به أنه أخلص حياته للعلم، وأنه طلبه فى كل مكان سمع أنه فيه، ومن كل مجال.

ونستطيع أن نلمح فى دراسته لوني، كانا شائعين فى عصره: دراسة منتظمة، وأخرى غير منتظمة. أما المنتظمة فكانت من علمى القراءة والعربية. فتلقى العلم الأول عن أبان بن يزيد العطار، والحسن بن عمران الشحام، وأبى عمرو بن العلاء<sup>(١)</sup>. وتلقى الثانى عن حماد بن سلمة وأبى عمرو أيضاً<sup>(٢)</sup>.

وليس فيما بقى من أقوال يونس وأخباره صدى هؤلاء الشيوخ، سوى أبى عمرو. فالأقوال التى نقلها عن حماد نادرة بل تكاد تكون معدومة، بالرغم أنه كان يفضلها<sup>(٣)</sup>. ومثال ما رواه عنه ما جاء فى نزهة الألباء<sup>(٤)</sup>: "حكى أبو الحسن

---

(١) الفهرست ٢٨. النزهة ٢٦. الغاية ٢ : ٤٠٦. الوفيات ٢ : ٤١٦. معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤. إنباه الرواة ٢ : ٣٦٣. ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٢) ابن سلام ١٤. المراتب ٢٢. السراى ٢٧، ٣٤. مجالس العلماء ٢٤٣. الأزهري ٢٩. ابن النديم ٤٢. ابن الجزرى ٢ : ٤٠٦. ابن العماد ١ : ٣٠١. المزهري ٢ : ٣٩٩. البغية ٢ : ٣٦٥. الشريشى ٤٠٢ : ٢.

(٣) النزهة ٢٧. قال ابن الأنبارى: "حكى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب عن محمد بن سلام فى ترتيب النحويين من البصريين فقال: وحماد - يعنى حماد بن سلمة - كان يونس بن حبيب يفضلها". وقد أدى ذكره حماد دون تحلية إلى خطأ كثيرين إذ ظنوه حماد بن الزبيرقان. انظر السراى ٣٤.

(٤) ٢٧.

الأخفش، عن يونس بن حبيب: أن حمادا حدثه أن ناسا من العرب يقولون في النسب إلى شية: شيوى، والوجه فيه غير ذلك، وهؤلاء كأنهم قلبوا موضع الفاء فوضعوه في موضع اللام.

أما أبو عمرو بن العلاء فكان يونس يرفعه مكانا عليا، ويشق فيه كل الثقة، ويقول<sup>(١)</sup>: "لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك". فلا عجب أن تكون أكثر رواية يونس عنه، فلا تحتاج إلى مثال للتدليل.

وكان في عصر حماد وأبي عمرو أو في عصر سابق عليهما قليلا: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي. فعاصره يونس ورآه. ولكن ابن النديم<sup>(٢)</sup> حكى عن يونس أنه قال: "لم أسمع من عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، ولكنى سألته هل يعلم أحدا يقول: الصويق، مكان: السويق، فقال: "هي لغة عمرو بن قميم".

وأخال أن ابن النديم محظي في إنكاره سماع يونس من عبد الله، وأنه لم يصب في فهم الخبر. فحقيقته التي أوردتها ابن سلام<sup>(٣)</sup> قلت ليونس: "هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئا؟" قال: "قلت له: هل يقول أحد: الصويق.." ولم يرد بذلك حصر سماعه في هذا الإبدال، بل أراد إثبات السماع.

والدليل على ذلك أن يونس كان يجعل عبد الله ويرى أنه أعظم علماء عهده

(١) ابن سلام: ٩٥، الأزهري: ٤، الزهراء: ١٥.

(٢) الفهرست: ٤٢.

(٣) طبقات فحول الشعراء: ١٥.

فى النحو، وأنفذهم ذكاء. قال محمد بن سلام<sup>(١)</sup>: "سمعت أبى يسأل يونس عن ابن أبى إسحاق وعلمه، فقال: "هو والنحو سواء". أى هو الغاية. قال: "فأين علمه من علم الناس اليوم؟" قال: "لو كان فى الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه يومئذ لضحك به، ولو كان فىهم أحد له ذهنه ونفاذه، ونظر نظرهم، كان أعلم الناس". فغير معقول أن يرى فيه هذا الرأى وأن يعاصره أكثر من ربع قرن ثم لا يسمع منه.

والحق إن يونس سمع من ابن أبى إسحاق وروى عنه. قال أبو عبيدة عن يونس قال<sup>(٢)</sup>: "مضيت إلى عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى فقلت له: "كيف تقرأ (فإذا برق البصر؟)" فقال: "فإذا برق البصر، وفتح الراء. فقممت من عنده إلى أبى عمرو فقلت: "من أين بك؟" قلت: من عند عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى، سألته: كيف تقرأ (فإذا برق البصر) فقال: "فإذا برق البصر، بفتح الراء". فقال أبو عمرو: "أين يُراد به، يقال: برقت السماء، وبرق النبات، وبرقت الأرض، فأما البصر فبرق؛ كذا سمعنا".

وقال أبو عبيدة أيضا<sup>(٣)</sup>: "زعم يونس عن ابن أبى إسحاق قال: أصل الكلام بناؤه على فعل، ثم يبنى آخره على عدد من له الفعل من المؤنث والمذكر، من الواحد والاثنين والجميع، كقولك: فعلت وفعلنا وفعلن وفعلا وفعلوا. ويزاد فى أوله ما ليس من بنائه، فيزيدون الألف كقولك: إعطيت، إنما أصلها عطوت، ثم يقولون: معطى، فيزيدون الميم بدلا من الألف .. " فلا شك عندى فى أخذ يونس عن ابن أبى إسحاق سماعا فى بعض الأحيان، ورواية عن أبى عمرو فى بعضها

(١) المرجع السابق ١٤ السيرافى ٢٠ . النزهة ١١ . الزبيدى ٢٦ .

(٢) مجالس العلماء ٢٤٧ .

(٣) مجاز القرآن ١ : ٣٧٦ . وانظر القفطى ٢ : ٣٦٥ .

الآخر، فيما أظن<sup>(١)</sup>.

ولم يعلن أحد من الذين أرخوا ليونس من رجعت إليهم أنه أخذ عن محمد بن مسلم الزهرى. ولكننى عثرت على رواية له عنه<sup>(٢)</sup>، تعرض فيها لتفسير آية ﴿وما علمناه الشعر﴾. وغير بعيد أن يأخذ يونس عن الزهرى، فقد مات هذا فى سنة ١٢٣هـ أو بعدها وعرف بالحديث والأخبار. وكان ليونس شغف بالأخبار العربية، ومشاركة فى الحديث، حتى ذكره ابن أبى حاتم فقال<sup>(٣)</sup>: هو صاحب غريب.

وأضاف ثعلب شيخا آخر ليونس بن حبيب. قال فى أماليه<sup>(٤)</sup>: "كان يونس يقول: "حدثنى الثقة عن العرب". فقليل له: "من الثقة؟" قال: "أبو زيد". قيل له: "فلم لا تسميه؟" قال: "هو حى بعد فانا لا نسميه". لكن هذا القول غير صحيح أيضا. فالمعروف أن الذى كان يروى عن أبى زيد الأنصارى، ويلقبه الثقة، ويكنى بذلك عنه فى روايته هو سيويه. أما يونس فلم يفعل ذلك، بل كان شيخا لأبى زيد.

وزاد بروكلمان<sup>(٥)</sup> شيخا آخر هو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش الأكبر. ولكننى لم أعثر على المصدر الذى استقى منه هذا القول، فإنا متوقف فى صحته.

---

(١) انظر روايتهما ما نسب من خلاف بين ابن أبى اسحاق والفرزدق فى الموشح للمرزبانى ١٠١، وطبقات ابن سلام ١٩.

(٢) السيرافى ٥٦.

(٣) طبقات ابن قاضى شهبة ٢٥٢.

(٤) المزهر ١ : ١٤٣، ١٥٢. الاقتراح ٢٨.

(٥) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠.

## الأعراب

واللون الثاني من الدراسة، وهو الذى وصفته بالدراسة غير المنتظمة، أعنى به الدراسة التى حصلها عن غير شيخ أو عالم معروف. وأهم ما يندرج تحت هذا اللون من الدراسة فى ذلك الزمن الرحلة إلى البادية، والعيش مع الأعراب الفصحاء فى مواطنهم، والحوار معهم، حتى قيل<sup>(١)</sup> إن الكسائى لما ارتحل إلى البصرة وجلس فى حلقة الخليل بن أحمد ليأخذ عنه، استنكر عليه أحدهم هذا الفعل وقال له: "تركت أسداً وتقيماً وعندهما الفصاحة وجئت إلى البصرة!" فسأل الخليل: "من أين علمك هذا؟" فقال: "من بوادى الحجاز ونجد وتهامة".

وتدور عبارة واحدة عند كل من كتب عن يونس تدل على هذه الدراسة، تقول<sup>(٢)</sup>: "وقد سمع من العرب كما سمع من قبله".

ولم أجد نصاً يصرح بأن يونس "سمع من العرب" فى "بواديههم" بالرحلة إليهم، وإن كنت أرجح أنه قد فعل، بالرغم من وجود نص يدل على أن "العرب" أنفسهم كانوا يفتدون على يونس فى البصرة. ولا يقل هذا النص دوراناً عند الكاتين عن يونس عن النص السابق؛ ويقول<sup>(٣)</sup>: "وكانت حلقتة بالبصرة يتتابها أهل العلم، وطلاب الأدب، وفصحاء الأعراب والبادية".

ولا يقف الأمر عند هذا النص، بل تتعدد الأخبار عن هذه الحلقة، ومن طرقها

(١) النزهة ٤٣.

(٢) السيرافى ٢٧، النزهة ٣١، ابن خلكان ٢ : ٤١٦، القفطى ٢ : ٣٦٥، يافوت ٢٠ : ٦٤، البيهية ٧ :

٣٦٥ . ابن فاضى شهبة ٢٥٢.

(٣) نفس المواضع.

من الأعراب للسؤال خاصة. قال أبو زيد<sup>(١)</sup>: "وقف علينا أعرابي فى حلقة يونس النحوى فقال: "الحمد لله كما هو أهله، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، خرجنا من المدينة - مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثلاثين رجلا ممن أخرجته الحاجة، وحمل على المكروه، لا يمرضون مريضهم، ولا يدفنون ميتهم، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه، والله ياقوم لقد جعت حتى أكلت النوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلت الدم، وحتى خرج من قدمي بخص ولحم كثير. أفلا رجل يرحم ابن سبيل، وفل طريق، ونضو سفر. فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن ثواب الله عز وجل، ولا عمل بعد الموت. وهو الذى يقول جل ثناؤه (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) ملىّ وفي ماجد واجد جواد، لا يستقرض من عوز، ولكنه يبلو الأختيار". قال: فبلغنى أنه لم ييرح حتى أخذ ستين دينارا".

ويذكرنا هذا الخبر بالمقامات، التى كانت تدور حول فن السؤال والكديّة، ويعتمد بطلها على فصاحتها فى إغراء الناس على التصدق عليه. ويجعلنا هذا نعيد النظر فى كون البذور الأولى لفن المقامات وُجدت عند أبى بكر بن دريد كما ظن الدكتور زكى مبارك<sup>(٢)</sup>. وبعد فى الزمن ونرى بذورا أقدم غرست فى حلقة يونس النحوى، وعلى أيدي جماعة من رواد حلقة الدائمين مثل أبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة، أعجبوا بما رأوا من أعراب يسألون الناس فى الحلقة، ويقوهون بالمعجب من القول، فاتخذوا منهم أساسا بنوا عليه بناء فنيا جميلا<sup>(٣)</sup>.

وعندنا خير يدل على أن هذه الحلقة كانت تضم أعرابا من قبائل شتى. فقد

(١) الكامل ١ : ٣٠٥.

(٢) النشر الفنى فى القرن الرابع ١ : ١٩٧ - ٢٠١.

(٣) انظر أيضا القفطى ٢ : ٣٦٦ . والمزهر ٢ : ٥٢٢.

رووا<sup>(١)</sup>: "قال رجل من الأزدي في مجلس يونس النحوي: وددت والله أن بنى تميم جميعا في جوفى على أن يضرب وسطى بالسيف. قال له شيخ في ناحية المجلس حر مازى من بنى تميم: يا هذا، يكفيك من ذلك..".

ولدينا عدة أخبار أخرى تحكى لقاء تم بين يونس بن حبيب وبعض الأعراب. ولكنها لا تبين موضع هذا اللقاء غير أننا نستنبط منها أنه لم يكن في حلقة. ونستطيع أن نستنبط من بعضها أنه كان في البصرة، مثل ذلك الأعرابي الذي روى قصته أبو عبيدة. قيل<sup>(٢)</sup>: "جاء عن عمر في الحديث أنه قال: ثلاثة أسفار كذب عليكم: كذب عليكم الحج، كذب عليكم الجهاد، كذب عليكم العمرة. قال أبو عبيدة: هكذا سمعتها من العرب يرفعون بها في معنى الأعراب.. ما خلا أعرابيا من غنى - وكان فصيحاً - فإنه نصب. وذلك أنه دخل منزلي فرأى شويهة مضرورة فقال: ما بال هذه على ما أرى؟ فقلت: إنما نعلفها. فقال: كذب عليك البزر والنوى. فأتيت به يونس بن حبيب، فكتبها عنه، وكتب بعد ذلك منه علما كثيرا. وقال: هذا القياس".

وتصور لنا الأخبار المروية عن يونس والأعراب العلاقة بينهم، وكيف كان يسلك الرجل متى الطرق ليحصل على ما يريد منهم. فكان أحيانا يقتصر على الجلوس معهم والاستماع إليهم دون أن يتدخل في شيء. قال ابن سلام<sup>(٣)</sup>: "سمع يونس أعرابيا وقد قال له أعرابي آخر: كبرت والله. قال: أجل، لقد طالت حياتي،

(١) العقد الفريد ٤ : ٥١.

(٢) نوادر أبي مسحل الأعرابي ١١١ - ٤.

(٣) أبو أحمد العسكري ٧٤. وانظر ذيل الأمال ١١٩، وأضداد أبي الطيب ٦٤٩، وجمهرة اللغة لابن دريد

٣ : ١٦٣، ومجالس ثعلب ٨.

وتحنت قناتي، وابيضت سراتي".

وكان في بعض الأحيان يجاور الأعراب ويغريهم على أن يمنحوه أخبارهم. قال ابن سلام<sup>(١)</sup> : "سمعت أعرابيا يخبر يونس قال: فارق أعرابي امرأته فقالت: إن كنت إذا أكلت لتحتف، وإذا شربت لتشتف، وإذا غت لتلتف. قال: والله إن كنت لبولة منعة، طلعة قبة".

وكان في أحيان أخرى يلجأ إلى السؤال المباشر. قال<sup>(٢)</sup> : "سألت أعرابيا فقلت: أمسكين أنت أم فقير؟ فقال: لا بل مسكين".

وقد وصل إلينا أسماء بعض الأعراب الذين اتصل بهم يونس وأخذ عنهم. وأهمهم رؤبة بن العجاج، الذي رأينا سابقا غضبته له حين هاجمه شبيل بن عذرة الضبعي. وقد لاحظ القدماء العلاقة الوثيقة بين الرجلين، فأعلن أبو الطيب عن يونس<sup>(٣)</sup> : "كان شديد الاختصاص برؤية بن العجاج".

وتوعدت صور أخذ يونس عن رؤبة. فكان أحيانا يكتفى بمجرد الاستماع إليه وتسجيل حديثه، كما فعل<sup>(٤)</sup> حين روى أن رؤبة يقول: "ما جاءت حاجتك بالرفع. وكان في أحيان أخرى يرصد ما يرويه من شعر غيره، والطريقة التي ينشده بها<sup>(٥)</sup>، كما فعل حين أعلن أن رؤبة كان ينشد البيت التالي لأحد بني مذحج<sup>(٦)</sup>

(١) مجالس ثعلب ٤٥١.

(٢) شرح ابن الأباري للمفضليات ٢٣٥. وانظر النصف ٣ : ١٨.

(٣) مراتب النحويين ٢٢.

(٤) الكتاب لسبويه ١ : ٢٥.

(٥) الكتاب ١ : ١٦١.

(٦) ينسب البيت إلى هني بن أهر الكناني (انظر المرجع نفسه).

بالرفع:

عجب لتلك قضية، وإقامتى فيكم على تلك القضية أعجب

وكان فى أحيان ثالثة يوجه السؤال المباشر إلى رؤية. روى أبو عبيدة<sup>(١)</sup>:  
"سأل يونس رؤية عن قول الله تعالى (ما بعوضة) فرفعها، وبنو تميم يعملون آخر  
الفعلين والأداتين فى الاسم. وأنشد رؤية بيت النابغة مرفوعا:

قالت: ألا ليما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد"

لم يكن يستهدف فى كل أسئلته النحو كما سبق، بل كان أحيانا يريد اللغة،  
ويقصد معرفة معانى بعض الألفاظ. قال أبو عبيدة<sup>(٢)</sup>: سمعت يونس بن حبيب  
يسأل رؤية عن السانح والبارح فقال: السانح ما ولاك ميامنه، والبارح ما ولاك  
مشائمه".

وكان يونس أحيانا يعرض على رؤية ما عنده فيعلق عليه. روى أبو عبيدة<sup>(٣)</sup>:  
"وأنشده يونس بيت جرير:

إنى - إذا الشاعر المغرور جربنى - جار لقبر على مران مرموس

فقال رؤية: كذب والله، ما تميم بمران، إنما هو بذات عرق، وقبر معد بمران".

وفى بعض الأحيان لم يكن يونس هو السائل أو المتحدث، بل كان رجلا  
غيره، فسجل هو ما وقع، إذ وقع فى حلقتة. قال ابن سلام<sup>(٤)</sup>: "سمعت يونس يقول:

(١) مجاز القرآن ١ : ٣٥.

(٢) شرح ديوان زهير ٥٩.

(٣) الموشح ١١٩.

(٤) الموشح ٢١٨.

كان رؤية عندي، فقال له رجل: ما معنى قول العجاج:

وحبس الناس الأمور الحبسا

فقال له رؤية: قلبه وملك".

وبلغ من إلحاح يونس على رؤية أن ضاق به ذرعا، فقال له ذات مرة<sup>(١)</sup>:  
"حتام تسألني عن هذه الأباطيل وأزخرفها لك؟ أما ترى الشيب قد بلع في حيتك".

وقد ظهر أثر ذلك جليا في مرويات يونس، فإنه نسب إليه فيضا زاخرا من  
المعلومات اللغوية والنحوية والأدبية. فلا عجب أن ادعى أنه "غلام رؤية".

وبالرغم من ذلك لم يتقبل يونس كل شيء تفوه به رؤية دون جدال، بل كان  
في بعض الأحيان يؤاخذة ويؤاخذ أباه لاشتقاقات يخرجان فيها على القياس عنده،  
حتى ضاق به رؤية وقال له<sup>(٢)</sup>: علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا.

وأخذ يونس أيضا من أبي مهدية من ثقات الأعراب وروى عنه. قال<sup>(٣)</sup>:  
"ذهبنا إلى أبي مهدية في عقب مطر نسأله عن حاله - وكان قد بنى بيتا في ظاهر  
خندق البصرة وسماه جناحا - فقلنا له: كيف أنت يا أبا مهدية؟ فقال:

عهدي بجناح إذا ما ارتزا وأذرت الريح ترابا نزا

أن سوف تمضيه وما ارمأزا كأنما لز بصخر لزا

أحسن بيت أهرا ويزا

(١) السيرافي ٢٨. ابن سلام ٥٨١. البغية ٢: ٣٦٥. الزهر ٢: ٣٦٣. أبو أحمد العسكري ١٥٠. العقد

الفريد ٦: ٢٦٧. النزهة ٣٢. القفطي ٢: ٣٦٦. ابن خلكان ٢: ٤١٦.

(٢) سعيد الأفغانى: في أصول النحو ٥٦. (الخواشى). وانظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٤: ٣٢٧.

(٣) ابن دريد: جهرة اللغة ٢: ٣٢٦.

يقال: بيت حسن الأهرة والظهرة: إذا كان حسن المتاع. قال: وما كان في البيت إلا حصير محرق".

وحكى أبو الطيب خبراً يدل على أن يونس كان على صلة بأبي الدقيش، الذي وصفه أبو الطيب بأنه "كان أفصح الناس"، قال عن الأخفش<sup>(١)</sup>: "قال يونس: سألت أبا الدقيش: ما الدقيش؟ فقال: لا أدري، إنما هي أسماء نسمعها فتسمى بها". ولكن هذا الخبر نفسه مروى عن الخليل، بل كان من روايته أبو الطيب<sup>(٢)</sup> عن الأخفش أيضاً. غير أننا نلاحظ في رواية الخليل قوله: "دخلنا على أبي الدقيش نعوده" فتحدث بضمير الجماعة. فرمما كان العائدون للرجل كثيرين، وكان فيهم الخليل ويونس.

وروى السيوطي خبراً يدل على أن يونس أخذ عن يكنى بأبي الحلم، قال<sup>(٣)</sup>: "عن أبي الحلم قال: أنشدت يونس أبياتاً من رجز فكتبها على ذراعه ثم قال لي: إنك لجيء بالخير". فإن كان قصد أبا الحلم الشيباني، الذي ألف كتب الأنواء، والخليل، وخلق الإنسان، كان الخبر غير صحيح لأن ابن النديم<sup>(٤)</sup> يصرح أنه مات في سنة ٢٤٨، أي بعد وفاة تلاميذ يونس، فمحال أن يروى عنه.

ويبدو أن يونس أخذ عن أبي طفيلة الحرمازي ثم استضعفه بعد إقامته مدة في البصرة. قال أبو عبيدة<sup>(٥)</sup>: "قال أبو طفيلة: طه: يارجل. فأتكره يونس وقال: أظنه

(١) مراتب النحويين ٤٠ - ٤١. الزهر ٢ : ٣١٨.

(٢) مراتب النحويين ٤٠.

(٣) الزهر ٢ : ٣٠٤.

(٤) الفهرست ٤٦.

(٥) مجاز القرآن ٢ : ١٥ (الحواشي).

سمعها عندنا.. أين سمعت هذا؟ فقال" بالبادية. فقال له يونس: أأست أخبرتنا أنك قدمت البصرة في حطمة فكنت مؤذن عمران القصير عشر سنين، أو قال: نحوها".

وذكر الجاحظ أن يونس أخذ عن رجل قد تعجب أن يأخذ عنه، لأنه غير عربي، قال<sup>(١)</sup>: "كان يونس بن حبيب يسمع منه (من أبي علي الأسواري) كلام العرب ويحتج به". ولكننا حين نطلع على إفاضة الجاحظ في الثناء على الرجل ووصف فصاحته، يزول كثير من عجبنا. وبالرغم من ذلك أظن أن الجاحظ أراد أن يونس احتج بالأسواري فيما نقله عن العرب توثيقا له، ولم يرد أنه احتج بلغته.

وكان يونس لا يقصر جهوده على أحد، بل كان يبحث عن المعرفة في كل مظانها. فكان ممن بحث عنها عندهم الشعراء. فسعى إليهم واستمع إلى أشعارهم. وقد مر بنا في حوارهم مع الكسائي تصريح منه أنه استمع إلى الفرزدق وهو ينشد شعره<sup>(٢)</sup>. كذلك اتصل بذي الرمة وروى أشياء عنه. ذكر الأصمعي عن يونس<sup>(٣)</sup> أنه سأل ذا الرمة عن كلام ليس على وجهه، فقال له: أتعرف اليتن؟ وهو الولد الذي تخرج رجلاه قبل رأسه عند ولادته. قال: نعم. قال: فكلامك هذا يتن.

نتبين من هذه الأخبار حرص يونس بن حبيب على علوم العربية، وإقباله عليها، لا يشغله عنها شاغل، وبحثه عنها في كل مجال، وعند كل أهل للبحث عنده. واجتمع هذا الجهد الدائب إلى ذاكرة واعية، جعلت أبا الخطاب زياد بن يحيى يقول<sup>(٤)</sup>: "مثل يونس كمثلكوز ضيق الرأس لا يدخله شيء إلا بعسر، فإذا دخله

(١) البيان والبيان ١ : ٣٦٩.

(٢) وانظر كتاب سيويه ١ : ٢٥٣.

(٣) ابن دريد : جهرة اللغة ٢ : ٣١.

(٤) القفطي ٢ : ٣٦٤.

لم يخرج منه" - يعنى لا ينسى وكان الرجل الذى يتحلى بهذه الصفات ذا شخصية قوية، وعقل حر، ورأى مجتهد. فكانت الثمرة عالما يبرز بين العلماء، ويجوز الشهرة بين المشهورين. فلا يخمله علم، ولا يطفئه نجم. فقرنت البصرة بينه وبين أشهر أبنائها من العلماء حينئذ: الخليل بن أحمد القرهودى<sup>(١)</sup>.

---

(١) آثرت هذه النسبة مجاملة ليونس الذى كان يحتمها، وإن كان القراهيدى أشهر.

## الفصل الثالث

### بازل العلم

#### حلقاته

ليس غريبا إذن أن يتنبه طلبة العلم إلى رجل بالصفات التي تبينت لنا سابقا، بل الغريب ألا يفعلوا. وليس غريبا أن يلتفوا حوله، فيؤلفوا واحدة من حلقات البصرة العلمية. وخاصة إذا وضعنا نصب أعيننا قول أبي زيد<sup>(١)</sup>: "ما رأيت أبذل لعلم من يونس".

ولست أستطيع أن أحدد مبدأ هذه الحلقة، ولكنى عثرت على خبر يدل على أنها كانت قائمة قبل وفاة الخليل. قال النضر بن شميل<sup>(٢)</sup>: "جاء رجل من حلقة يونس فسأل الخليل عن شيء..".

ولما انتقل الخليل إلى جوار ربه انفرط عقد حلقاته، وانخرط كثير من أفرادها في حلقة يونس أو ثبتوا فيها بعد أن كانوا يترددون بينها وبين حلقة الخليل. بل نفهم من بعض الأقوال أنه شغل المكان الشاغر في حلقة الخليل<sup>(٣)</sup>. فصارت حلقاته هي وصف مروان بن أبي حفصة لها: "فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس".

ولعل من أكبر الأدلة على عظم هذه الحلقة واحتفالها بالناس قصد السائلين

---

(١) سمط اللآل ١٩٥. القفطي ٢ : ٣٦٤.

(٢) الشريشي ٢ : ٢٤٧. الشذرات ١ : ٢٧٦. مرآة الجنان ١ : ٣٦٤.

(٣) نزهة الألباء ٤٣.

إياها، كما أبانت بعض الأخبار السابقة، وكما نرى في قول أبي عبيدة<sup>(١)</sup>: "كنت في حلقة يونس فجاء أعرابي. فوقف علينا فقال: "من ينصرنى نصره الله". فقال يونس: "أتتكم والله من قرب: من يرزقنى رزقه الله. قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ أى يرزقه الله".

وقد طال عمر هذه الحلقة بطول عمر صاحبها، حتى قال أبو زيد الأنصارى<sup>(٢)</sup>: "جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين، وجلس إليه قبلى خلف الأحرع عشرين سنة". وربما مال بنا الظن إلى أن أبا زيد بالغ في قوله أو تهاون في ذكر السنين. ولكننا نجد الظاهرة تتكرر عند تلميذ آخر للرجل، هو أبو عبيدة، الذى قال<sup>(٣)</sup>: "اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملاً كل يوم ألواحى من حفظه". فهذا التكرار يقطع الشك أو يضعفه، وخاصة إذا قرناه بأن الرجل عاش قرابة قرن من الزمان.

وعرفنا سابقاً أن هذه الحلقة التى امتازت بالعظم وطول العمر، توفر لها التنوع أيضاً، فكانت مقصد فئات كثيرة من الناس كما وصفها الواصفون. ونستطيع أن نطمئن إلى هذا الوصف لأن الأخبار المتعددة تؤيده. وقد أوردت آنفاً من الأخبار ما يكشف عن كونها مقصد الأعراب للالتقاء بهم والتحدث معهم أو لسؤال المترددين عليها.

وتردد على الحلقة أيضاً الشعراء لانشاد ما استحدثوا من شعر، كما فعل

(١) القفطى : ٢ : ٣٦٦ .

(٢) القفطى : ٢ : ٣٦٦ . ياقوت ٢٠ : ٦٥ ، ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ .

(٣) القفطى : ٢ : ٣٦٦ . ياقوت ٢٠ : ٦٥ ، ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . أبو الطيب ٢١ ، المزهر ٢ : ٣٩٩ . ابن

العماد ١ : ٣٠١ .

مروان بن أبي حفصة في مدحته للمهدى التي أراد أن يستفتى فيها يونس، وفعل  
بشار بن برد في أبياته التي كانت السبب المباشر في مقتله.

غير أن الهدف الأول الذي رمى إليه كل الذين قصدوا الحلقة هو "علم  
العربية"، الذي برز فيه يونس، وبرز فيه تلاميذه المتلفون حوله. وكان قصد  
الكسائي حلقة يونس ضربة حظ للدارسين، إذ أثار من النقاش ما لفت أنظار كثيرين  
فسجلوا بعضه، فأعطونا صورة مما كان يدور في الحلقة، ومسالك الحوار فيها. وقد  
أوردت عدة أخبار في هذا الشأن، غير أنني أحب أن أضع هنا هذه الصورة  
المفصلة. قال المازني<sup>(١)</sup>: "إن مروان بن سعيد المهلبى سأل الكسائي بحضرة يونس:  
"أى شيء تشبه (أى) من الكلام؟" فقال: "ما ومن". فقال له: "فكيف تقول:  
لأضربن من فى الدار؟" قال: "لأضربن من فى الدار". قال: "فكيف تقول:  
لأركبن ما تركب؟" قال: "لأركبن ما تركب". قال: "فكيف تقول: ضربت من  
فى الدار؟" قال: "ضربت من فى الدار". قال: "فكيف تقول: ركبت ما ركبت؟"  
قال: "ركبت ما ركبت". قال: "فكيف تقول: لأضربن أيهم فى الدار". قال:  
"لأضربن أيهم فى الدار". قال: "فكيف تقول: ضربت أيهم فى الدار؟" قال:  
"لا يجوز". قال: "لم؟" قال: "(أى) كذا خلقت".

وكان يونس فى بعض الأحيان هو الذى يثير تلاميذه، إذ يختار أحدهم،  
ويوجه إليه سؤالاً، ليمهد السبيل أمام النقاش. روى العباس بن ميمون قال<sup>(٢)</sup>:  
"سمعت الأصمعى - وذكر مروان بن أبي حفصة فقال: كان مولدا ولم يكن له علم

(١) السيرافى ٢٧. مجالس العلماء ٢٤٤. المزهري ٢: ٣٧٣، الحصان ٣: ٢٩٢.

(٢) المرشح ٢٥١.

باللغة، حضرته في حلقة يونس، وسأل يونس عن قول زهير:

فتنا عرارة عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

فقال مروان: من العرواء من البرد. فقلت له: أخطأت، لو كانت من العرواء لقال: فتنا معروين، انما عنى أنهم باتوا مشمرين كما يقال: تجرد فلان للأمر".

وكانت حلقة يونس - شأن الحلقات العلمية الحية - مسرحا لمعارك أدبية، إثر خلافات تنشب بين روادها. روى التوزي<sup>(١)</sup>: "صحف الفيض بن عبد الحميد في حلقة يونس بن حبيب - وأنشد بيت ذى الأصبع العدواني:

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض

قال الفيض: جنة الأرض - فقال خلف الأحمر يهجو:

لنا صاحب مولع بالخلاف	كثير الخطاء قليل الصواب
أشد لاجحة من الخنفساء	وأزهى - إذا ما مشى - من غراب
إذا ذكروا عنده عالما	ربا حسدا أو رماه بعباب
وليس من العلم في كفه	إذا ذكر العلم غير السراب
أضاليل جمعها شوكر	وأخرى مولدة لابن داب

فزاد إبان على أبياته - وذكر تصحيفا لأبى العتبى، وقد ذكر رجلا فقال:

يكنى أبا الضيم، وانما هو آبى الضيم - فقال إبان:

فلو كان ما قد روى عنهما سمعا ولكنه من كتاب

(١) الأوراق ٣٥.

رأى أحرفا شبهت في الهجاء      سواء إذا عدها في الحساب  
 فقال : أبى الضيم يكنى أبا      وليس (أبى) إنما هو أبى  
 وفي يوم صفين تصحيفة      وأخرى له في حديث الكلاب  
 وتصحيف فيض بن عبد الحميد      مد في جنة الأرض أو في الرباب  
 وعالي بذلك في صوته      كقعقة الرعد بين السحاب"

فكانت حلقة يونس بذلك مجمعا للمذاكرة، والاستشارة، والمناشدة،  
 والمخاطبة. قال الأصمعي<sup>(١)</sup> : "أول من نعى المنصور بالبصرة خلف الأحمر: كنا في  
 حلقة يونس، وجاء خلف فسلم وقال: "قد طرقت ببيكرها أم طبق" فقال يونس: وما  
 ذاك يا أبا محرز؟" فقال: "فتنحوها خبرا ضخم العنق" فقال: لم أدر بعد. فقال: "موت  
 الامام فلقة من الفلق" فارتفعت الضجة بالاسترجاع.

## تلاميذه

لما كان يونس بن حبيب رضى الخلق، باذلا للعلم، التف حوله كثير من  
 التلاميذ، وعظمت حلقة كما رأينا. وكان الرجل محظوظا فيهم، فبرز منهم كثيرون  
 في علوم شتى.

فاشتهر منهم في اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى، وعبد الملك بن قريب  
 الأصمعي، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري<sup>(٢)</sup>، وأبو محمد يحيى بن المبارك

(١) الزمخشري: ربيع الأبرار ٤ : ٦٤ ظ.

(٢) أبو الطيب ٣٩ - ٤٠ . المزهر ٢ : ٣٩٩ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ .

اليزيدى<sup>(١)</sup> ومحمد بن المستنير قطرب. وطالت صلة أولهم بالرجل فكثرت روايته عنه كثرة واضحة. واختص به آخرهم دون غيره من اللغويين<sup>(٢)</sup>.

واشتهر منهم في النحو أبو بشر عمرو بن عثمان سيويه، وأبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي<sup>(٣)</sup>. وقد اتفق القدماء<sup>(٤)</sup> على أن سيويه "روى عنه وأكثر" ومصداق قولهم الاحصاء الذي قام به الدكتور مهدي المخزومي<sup>(٥)</sup> وأبان له أن سيويه ذكر يونس "في ثمانين ومئة موضع من كتابه وربما أورد ليونس فصلا كاملا كما جاء في بحث التصغير". ولهذا السبب صرح صاحب المصون أن سيويه أدرج أهم أقوال يونس في كتابه، قال<sup>(٦)</sup>: "ثم جمع سيويه علم البرعاء من النحويين القدماء كلهم، فذكر في كتابه مذهب الخليل، ومذهب يونس، ومذهب أبي عمرو، ومذهب ابن أبي إسحاق..".

ولحسن الحظ أن يونس اطلع على كتاب سيويه وأقر كل ما حكاه عنه. قال المبرد<sup>(٧)</sup>: قال يونس - وقد ذكر عنده سيويه "أظن هذا الغلام يكذب على الخليل". فقيل له: "قد روى عنك أشياء فانظر فيها". فنظر فقال: "صدق في جميع ما قال، هو قولى".

(١) أبو الطيب ٩٨.

(٢) أبو الطيب ٦٧. البغية ٢ : ٨. النزهة ٩٨.

(٣) السيرافي ٥٦. البغية ٢ : ٨. النزهة ٩٨.

(٤) السيرافي ٢٧، ٣٧. البغية ٢ : ٢٢٩، ٣٦٥. القفطى ٢ : ٣٦٥. ابن قاضي شهبة ٢٥٢. ابن خلكان ٤١٦ : ٢.

(٥) الخليل بن أحمد ٢١٩.

(٦) ١١٩.

(٧) السيرافي ٣٨، أبو الطيب ٧٦ - ٧، البغية ٢ : ٢٢٩. النزهة ٣٩. الزبيدي ٤٩.

وبسبب هذا القول كان كتاب سيبويه المعتمد الأول لمن يريد أن يدرس آراء  
يونس، وأن يثق بأن ما بين يديه من أقوال صادرة حقا عن الرجل. وعلى هذا  
الأساس أقمت دراستي.

وتتفق المراجع أيضا أن بعض أعلام الكوفيين قصدوا يونس بن حبيب ونقلوا  
عنه، أعني بذلك أبا الحسن علي بن حمزة الكسائي، وأبا زكريا يحيى بن زياد  
الفراء<sup>(١)</sup>. أما الكسائي فقد وقع بصرنا عليه عدة مرات في حلقاته. وأما الفراء فقد  
أخذ عن الرجل نحو<sup>(٢)</sup>، وشعرا<sup>(٣)</sup>. ولاحظ الأستاذ سعيد الأفغاني خلافا غير  
متوقع في هذه المناسبة، قال<sup>(٤)</sup>: "الطريف تشاذ البصريين والكوفيين في قراءة  
الفراء على يونس بن حبيب البصرى أستاذ سيبويه تشادا على غير المنتظر،  
فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه، والبصريون يدفعون ذلك".

واشتهر من تلاميذه في الأدب والأخبار أبو محرز خلف بن حيان الأحمر، وأبو  
عبد الله محمد بن سلام الجمحي<sup>(٥)</sup>، إن لم أذكر أبا عبيدة لمروره في اللغويين.  
ونظرة واحدة في كتاب طبقات فحول الشعراء للجمحي، وفي الأخبار التي  
أوردتها في دراستي هذه كافية لتبين دين الرجل لأستاذه.

وذكر ابن الجزرى<sup>(٦)</sup> جماعة من تلاميذه في قراءة القرآن، هم "ابنه حرمي بن

---

(١) السرافي ٢٧، ٤٤. البغية ٢: ٣٣٣، ٣٦٥. أبو أحمد العسكري ١٢٥. المزهر ٢: ٤١٠. النزاهة

٣١. القفطي ٢: ٣٦٦. ياقوت ٢٠: ٦٤. ابن قاضي شهبة ٢٥٢. ابن خلكان ٢: ٤١٦.

(٢) مجالس نعلب ٤٥٦.

(٣) السرافي ٢٨.

(٤) في أصول النحو ١٦٦.

(٥) المزهر ٢: ٤٠٥.

(٦) غاية النهاية ٢: ٤٠٦.

يونس، وأبو عمر الجرمي، وإبراهيم بن الحسن، وعبد الله بن سليمان، وعيسى  
الأسدي، وموسى بن عبد الصمد الأيلي".

وذكر ابن أبي حاتم<sup>(١)</sup> رجلين رواه عنه الحديث، هما زياد بن عثمان بن زياد  
ابن أبي سفيان، وقريش بن أنس.

---

(١) ابن قاضي شهبة ٢٥٢.